

# الأفراق في التعاليم البوذية

بقلم : علي زبيور

ولد كريشنا في بناريس وتنهت سيدة بريطانية لملاحه فتبنته وعملت على تثقيفه وتنشئته فتسنى له بهذا الجمع بين الثقافتين الغربية والهندية ، وحدة فكرية فريدة جعلته يؤمن فيما بعد بإمكانية التقارب والتفاهم بين المدنيتين ، ومن ثم بين العقل والتصوف ، بين المادة والروح وبأن الأزواجية في الانسان او بين الحضارات مجال ضعف ونقص ولا بد للواحدية ان تسود يوما فتلتقي قدرة الغرب وطاقاته بإمكانيات الشرق واستعداداته . وهكذا يسيطر اخيرا الاعتدال والتوسط . وقد سار كريشنا مورتي على طريقة بوذا المعلم الاكبر ، من ايمان عميق بالانسانية الخيرة والقيم الرفيعة ، ثم انه يبين فيما بعد ان هدف الروحانية الصحيحة والتدين الحقيقي هو التحرر من الضعف ومن الرذيلة ومن صنميات المجتمع والدين والسياسة فلم يقبل ان يكون صاحب دين جديد ، وحتى لا يكون حامل نبوة جديدة كما هيأ له مريدوه الذين تجمعوا حوله في مؤسسة لقبوها باسم «مؤسسة «نجم الشرق الطالع» ، ما لبث ان حوّل هذه رافضا الزيادة في المذاهب والعقائد الهندية الكثيرة . واتبع مبدأ الرشيديين الهنود والحكماء القاضي بان لا فصل بين العقل والروح ولا فرق بين انشاء الانسانية . فلسفة كهذه تنادي بحتمية التوحد والاندماج او بامسالتقارب بين الشرق والغرب لا الانتقال الدوري والتباعد الدائم بينهما ، قد تكون شطحات صوفية وافتراضات حالة وقد لا تكون كذلك وهذا ما نظنه . صحيح انه ليس علميا الحكم على مجرى الزمن فسي المستقبل او تعيين هدف ثابت لسير التاريخ وتطوره فهذا امر يتجاوز القدرة البشرية بلا ريب . لكن الانسان الذي هو يعطي الحوادث هذا المعنى او ذاك ، يجب عليه عند البحث او كتابة التاريخ ان يضع نصب عينيه وكهدف اسمى له خير البشرية وخدمتها . في النظرة الى المستقبل ، النظرة العميقة المخلصه ، تبدو لنا المخاوف جلية ان لم نندرع بالقيم الاخلاقية وبامال كريشنا ومعتقدات كمعتقداته من وجوب التقارب الذهني والسياسي في العالم اجمع . عديدة هي البوادر التي تثبت صدق تنبؤات الصديق الخالد بل هي معروفة جدا ولمؤسسة تنزايد يوما بعد يوم ، هذا الى جانب التنبؤ الذي يسمح لنا به علم الاجتماع من ان تلك الاراء ستتحقق فالخطوط العامة لما سيجري على حضارة ما ممكن معرفتها كالتطور الذي يطراً على شكل اجتماعي ضمن زمن معين أو على الظواهر الفكرية من آراء ومعتقدات . ذلك هو الدرس الاول الذي علينا تمثله من فلسفة

المكتبة العربية بحاجة الى من يعرفها على الفلسفة البوذية والافكار الهندية ، وقد اصدر الاستاذ كمال جنبلاط أربعة كتب في سلسلة « الحياة والنور » هي « المنداكابونيشاد » و « كريشنا مورتي » و « نشيد النور » و « في وهج التوحيد » ليعرفنا على ما عند الهنود من روائع فكرية ...

ويدعي الكثيرون بان للشرق ذهنية خاصة ازاء الغرب او ان هناك شرقا وغربا ، عقليا وفكريا بحيث ان هاتين اللفظتين تدلان على مفهومين مستقلين متنافرين بدون ان يقصد منهما التسهيل عند البحث والدراسة ، فعندنا الدين والروحانيات والتصوفات الغيبية وعندهم العقل والمادة والتحليل والاستقراء ، وما شكل ولن يشكل هذان الضدان وحدة او كلا متناسقا بل هما دائما عنصران متباعدان يتناوبان السلطة والفكر : كانت القوة في الشرق ثم انتقلت الى الغرب وبعد ستعكس الدورة مجراها ، او حسب قول لويس فير من ناحية اخرى ان سير التقدم الفكري يدور من الذكاء العملي ( اهرام الفراعنة ) الى الذكاء النظري ( فلسفة اليونان ) ...

وحول هذه التعاكسية بين الشرق والغرب قضايا فكرية عديدة ما زالت تشغل الازهان رغم كونها تتبع فلسفة التاريخ اكثر مما تخص العلم الايجابي بل انها نوع من الفلسفة الرومانطيقية ازدهرت مؤخرا على يد توماس مان وشبنجلر وكيسرلنغ في المانيا ثم انتقلت من هناك الى البلاد الاخرى فاشاعت هذه الحركة التمييز بين الحضارة والمدنية او بين الآلية الطاغية والتكنيك وبين الروحانية والمثل وبهذا يفضل الشرق ويسمو اخلاقيا على الغرب وتجدد رابطة الدم والعضوية والعاطفيات على العلاقات القائمة على التبادل والحساب او الرابطة التجارية التعاقدية بين الافراد .

لن نجادل في هذه الفلسفة التي تشوه الحقيقة ولا ترى الا وجها واحدا منها ، لكننا سننتقل الى فلسفة اخرى ، الى افتراضات الانتوغرافيين المضادة التي تفترض الوحدة بين مختلف الحضارات البشرية فتنتقل من مسلّمة هي وحدة العالم جاعلة من الاجزاء عناصر تكوينية متكاملة داخل هذا البيان الكلي بحيث ان هذه الحضارات تتطور بالاستعارات الناتجة عن اتصال اجزائها بعضها ببعض . اما النظرة الهندية للمشكلة فتبدو لنا من مطالعة الاونيشاد ، من تعاليم البوذية والحكماء الهنود ومنهم كريشنا مورتي مثلا الذي يقول عنه المترجم انه « الصديق الخالد » .

وفي الاوبنيشاد الخ.. حيث الدعوة الى تحقيق انسانية الانسان والظهور على اكمل ما يمكن ان يكون المرء في دنيا الواقع : من هنا ينبع الفرح الفاضل والدائم الذي يثبت لنا ان السعادة ممكنة في هذا الوجود وانها ليست ومضات خيالية او وقفاً على الآخرة بل انها قد تعاش ولا تتمثلها فقط او نحلم بها .

يقاس الرقي الفكري والحضاري باللغة وقوتها ، والفكر البدائي يتوازي مع اللغة البدائية . في الكتب الهندية القديمة والمفرقة في القدم ، نلاحظ سيطرة اللغة الصوفية وسعتها . تلك اللغة القريبة جداً من التي نعرفها عند المتصوفين العرب والاجانب ايضاً ، والتي تجمع بين وجهين: الوجه الرومانطيسي والخيالي والوجه التفكيرى والعقلي . لذا كان التعبير الصوفي في قمة مراتب التعبير وارفعها . فمن جهة يطل على الاخضر والشجر متوشحاً برداء نيساني بديع ، ويشرف من جهة اخرى على التحليل المتعمق في البحث عن الحقيقة الخالدة . هذا ما جعل الاوبنيشاد تعد من ابدع واروع الانتاج الفكري القديم . ان القاريء لرسائل الاوبنيشاد يتأثر بحلاوة تلك الهنديات التي يسمع فيها الانسان ويرى ربه ويؤكد لنفسه خلود الروح وسموه فوق الماديات وفوق الجسد ليعيش بروحه ويخلق في اجواء العاويات لمدة زمنية ما . تلك الاجواء عرفها الرشيدون الذين سلكوا الطريق فوصلوا الى النبع ثم دعونا للحاق بهم واعطوننا

كريشنا مورتى التي كانت مسلكه وحياته ، اننا بحاجة للاستماع العميق والاستجابة الصادقة لمثل تلك الاصداء الحية التي ترجعها في نفوسنا القلقة والخائفة من سوء المصير ، ترانيمه لصلواته الحارة ودعائه المخلص في « اعمل واعمل دائماً للبشرية » .

كأن الهند عالم خاص ، قائم بذاته ، يضم مختلف الفلاسفات او بذور النظرات الفكرية المتنوعة ، لكن ما يمكن ان يتصف به هذا العالم الواسع ويشكل ميزته وعقليته هو السعي لحل المشكلة الاخلاقية عملياً او الحياة السعيدة الفاضلة . اذا حللنا الطبيعة البشرية يظهر لنا وجود نوع من الاحساس الداخلي بضرورة تنظيم حياتنا حسب مبادئ اخلاقية نسميها الفضيلة ثم يتضح لنا ايضاً اننا ننشد السعادة والاطمئنان . من هنا كانت معضلة التوفيق بين هذين الشعورين ، فلجأ بعض المفكرين الى الماورائيات بينما فهم الابيقوريون مثلاً السعادة بانها اللذة الحسية ثم جعلوا من الفضيلة وسيلة للوصول اليها ، وكانهم خافوا الحياة فاعتزلوها وانتهوا الى حياة ضيقة بدون ان يتمكنوا من اعطاء البشرية حلاً سليماً للمشكلة الاخلاقية المذكورة . ومثلهم من بعد الرواقيون الذين جعلوا السعادة في استقامة العقل وحسن استعماله فقسوا هم ايضاً على الكائن البشري وحملوه فوق طاقته مشوهين صورته الحقبة بابعاده عن الغير وبامعانهم في السلبية .

لن نذكر الحلول الفلسفية الكثيرة التي قدمت ، ومع ذلك يجب التلميح لنظرية سبينوزا فهي شبيهة بالنظرية الهندية . انطلق سبينوزا من المعرفة ، فهي تؤدي الى غنى الكائن ومن ثم الى السعادة وفي النوع الاخير من المعرفة التي تؤدي او هي نفسها الغبطة ، فناء الفرد في الاله ونسيان الذات في الحياة التأملية حيث ترتبط الفضيلة بالسعادة ، تلك الحالة السامية التي نفهمها ونتذوقها أكثر مما نقدر ان نفسرها ونشرحها . في الحل السبينوزي شيء من التقدم بالنسبة للحلول التي سبقته حتى كان عمانوئيل كانط الذي انتقد هذه المشاريع المتعددة ثم جعل الحل الصحيح في اللجوء الى الماورائيات من القول بوجود وجود اله ونفس خالدة وحرية اخلاقية خارج هذا الزمن . لكن الفلسفة المعاصرة وجدت المخرج في « الفرح » . في الفرح يكون المرء في حالة سلم مع نفسه فلا انقسام او تناحر داخلي بين العواطف والميول والاهواء بل يسود الاتزان الديناميكي الذي يكونه الانسان بنفسه والذي ينتج عن تجاوز الخوف في النفس والمخاوف من الغير ومن الله ومن الموت ، هذا مع الانفتاح على القيم الاخلاقية ومع التكامل الدائم المستمر التابع من الكيان بأكمله والشامل النفس بأكملها .

هذه النتيجة التي توصلت اليها الفلسفة الاخلاقية بعد جهد جهيد ، نجدها بدون فارق عميق في التعاليم الهندية : في اناشيد كريشنا وقصائد « طايومانا فار »

### من منشورات دار الاداب

## دواوين نزار قباني

### زينة لكل مكتبة

#### الثلثون

قصائد نزار قباني ٣٠٠ ق.ل

قالت لي السمراء ٣٠٠ ق.ل

طفولة نهد ٣٠٠ ق.ل

سامبا ١٠٠ ق.ل

انت لي ٢٥٠ ق.ل

### دار الاداب

بيروت - ص.ب ٤١٢٢

مما تؤوب الى فلسفة عقلية متعمقة . مع ذلك فالبحرث عن الاله وعن الحبيب يحتل المركز الرئيسي في الانطواجيا الهندية : ونرى نفس المفهوم تقريبا للرب عند سينوزا وهجل وغيرهما من القائلين بوحدة العالم والاله ، « انك واحد مع العالم باسره » ( ٣ ) يقول طايومانافار . وعديدة هي الاسباب التي وجهت التفكير الهندي نحو الغيبيات اكثر مما وجهته الى النواحي الاخرى من ميادين العقل . هذا كريشنا مورتي يبدأ متسائلا :

يا صديقي حدثني عن الله !

ابن هو . . . كيف نلقاه ؟ ( ٤ )

ثم يشرع في البحث عنه وراء المظاهر ، وراء البحار والريح والسموات ، موغلا شيئا فشيئا في الروحانية المفرقة ، كل ذلك بجلال فكر مع ابداع في التصوير الملون والتخيل الزدان ، فيرى الله فكرة ونورا ثم يراه وحده دون سواه وذلك عندما يحلق كريشنا نحو المطلق وعندهما تزول الحجب والاهام او تسقط « المايا » ليظهر اليمان اي الجوهر الخالد في الانسان ويرتبط من ثم بالبرهان العنصر الازلي للوجود ، ويتحقق عندئذ ظهور الحقيقة الخالدة حيث يسعد المرء بقاء الله ويمتزج به بدون ان يخافه او يهابه :

ويا حبيبي كما يمتزج الندى بالعصارة

التي تغذي الزهرة ،

كذلك اصبحنا انا وانت الان واحدا (٥)

او تقول الابنيشاد صفحة ٣٧ : « كالسواقي تجري وتضمحل في البحار الواسعة فاقدة الاسم والشكل كذلك الذي يعرف يتوصل . . . الى الكائن الالهي الذي هو ارفع من كل رفيع . »

وكما نرى فان الاديان بكاملها تتلاقى في ذهن الحكيم الهندي بل ان هذا يتسامى ايضا وايضا ومن هنا تكون بعض الشطحات التي تبدو هرطقة او شعوذة . لكن ما يجب ان نعتبره اكثر واكثر في التجربة الروحية الهندية هو ضرورة عدم البحث عن السعادة بربطها بالماورائيات ولا عن عدن مفقوذة او ستأتي اذ انها في ذاتنا . وفي صميم نفوسنا ، اي كما قال بوذا او قالها بعده السيد المسيح : ان ملكوت الله ليس هنا ولا هنالك انه هنا في نفوسكم . ان الله في داخلنا « انت تقيم في معبد قلبي » لكن الطريق اليه ليست قصيدة سهلة في الطقوس الميتة او الشكليات السطحية بل هي ، كما يذكر المترجم في مقدمة الكتاب الثقافي ، في جواب ابي يزيد عندما سألوه ابن الطريق قال : غب عن الطريق تصل الى الله . اي ان النية في المرتبة الاولى اخلاقيا ودينيا ومثلها المحبة الحرة والانفتاح الحر . .

علي زيعور

ليسانيه في الفلسفة والاداب

(٣) نفس المصدر : ص ١٥

(٤) كريشنا مورتي : ص ٢٨

(٥) كريشنا مورتي : ص ٢٨ ، التلبيد الثامن

نظرة كلية الوجود ما زالت حتى اليوم بدون تغير يذكر رغم مرور حوالي خمسة او ستة الاف سنة عليها . ذلك ان هؤلاء الحكماء عرفوا الحق وعملوا به بارادة حرة مخلصه صادقة ، واعطوا للنية اهميتها . . . نحن نعرف ان ارسطو مثلا والرواقيين بعده وخاصة كانط رأوا ان كل خير او عمل صالح لا يكون مقصودالذاته بنية قويمه لا قيمة اخلاقية له . كذلك قالت الابنيشادقبل هؤلاء الفلاسفة بزمن مديد ، فراها تعطي الاعمال الطقسية غير الصادرة عن نية وارادة مرتبة ثانوية : « يتوهمون ان الاضاحي والتقدمات هي ما يجب ان تفضل على غيرها ، اولئك الضالون » (١) : ينبغي اذن في صلواتنا وفي كل اعمالنا الاخلاقية ان لا نهمل دور النية والمحبة والتسامح . والمحبة المقصودة هنا والتي تظهر لنا من خلال الاناشيد العديدة المترجمة تختلف اختلافنا بينا عن المفهوم الافلاطوني لها فهي مجردة ومنزهة عن اي دافع خارجي اخلاقي او جمالي او حسي ، انها قائمة بذاتها ومقصودة لذاتها وهي نفسها عند القديس بولس بمعنى انها غير مفروضة بل حرة وليست امرا بل واقع كما هي الحال ايضا عند ماكس شيلر مثلا ونيدو نسييل اذ تنصب على الانسان باكملة لا على صفة من صفاته او خلق فاضل من مناقبه . ويردد نيدو نسييل هنا ما سبق ان ذكره باسكال من ان الفرد قد يفقد صفاته او بعضها بدون ان يفقد محبتنا له او لشخصه . فوق ذلك يقول الحكيم شانكارا شاريا عن هذه المحبة ( البهاكتي ) انها تساعد على الانفتاح على الغير وعلى تجاوز الناحية الفردية فينشدنا :

بين وسائل التحرر

البهاكتي هو اقدرها

الذي هو كما تعلم ذلك

التفتيش فيك ، الاكتشاف فيك ( ٢ )

للتولوجية القسم الاعظم في البوذية وفي الابنيشاد ، بل ان الفلسفة الهندية بكاملها تمت الى اللاهوتية اكثر

(١) الابنيشاد : ص ٢٣

(٢) في وهج التوحيد : القطع الاول من الكتاب

## فتاة في المدينة

مجموعة اقاصيص بقلم

محمد ابو المعاطي ابو النجا

يصدر هذا الشهر

دار الاداب